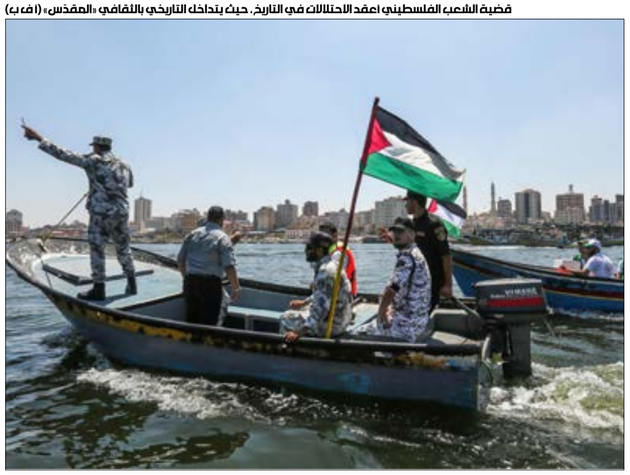

الأخبار
al-akhbar

■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب

■ مدير التحرير:
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير:
محمد زبيب
حسن عليق
إيلي حنا
أمل الأندري
شربل كريّم

■ صادرة عن شركة
أخبار بيروت

■ المكاتب بيروت ـ
فردان ـ شارع دونان
ـ سنتر كونكورد ـ
الطابق السادس
■ تلفاكس:
01759500
01759597
■ ص.ب 113/5963

■ الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500

■ التوزيع
شركة الأوائل
01 /666314_15 ـ
03 / 828381

■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

الذكرى السبعين للنكبة: التحدّي الراهن للحركة الوطنية الفلسطينية

نُفّج الرشيد *

تأتي الذكرى السبعين على ما تمّت تسميته «النكبة الفلسطينية» أو اختصاراً في المفهوم الشعبي «النكبة» وسط تراجع مخيف لأهمية القضية الفلسطينية والاهتمام الجاد بها، في ضوء تطور نكبات محيطة إن كان في العراق أو سوريا أو ليبيا وآخرها اليمن، وغيرها من البلاد العربية التي تعيش حالة فقدان الوزن وانحلال إطارات الدول التي نشأت بعد اتفاقات سايكس - بيكو في نهاية الحرب العالمية الأولى. من المفيد في هذه المناسبة التفحّص الموضوعي لواقع القضية الفلسطينية ومحاولة العدو الإسرائيلي السيطرة على أرض فلسطين التاريخية عبر استمرار عمليات القضم التدريجي للأرض برغم كل الاتفاقات التي أُقيمت وما زالت تحت مسمّى ما عُرف بأوسلو.

أولاً: في طبيعة المواجهة

أي في موضع الصراع: إنّ أي متفحص للصراع الذي جرى ويجري على أرض فلسطين لا بدّ أن يطرح السؤال: ما طبيعة الصراع وما هي القوى المتصارعة؟ ويعبّر عنه بطريقة شعبية دارجة «شو قضيتك؟». في رأينا إن أول مهمة أمام القوى الفلسطينية الحيّة هي في وضع تحديد مدى مشروع المواجهة كي تستطيع استكشاف وسائل وتكتيكات خيارات البدائل. هنا لا بد من العودة قليلاً إلى الوراء لتفحّص تاريخ تأسيس الكيان الصهيوني على أرض فلسطين التاريخية والمنطقة العربية المحيطة.

قراءة في تاريخ الصراع: إنّ أي متتبع للصراع على منطقة المشرق العربي في العصر الحديث لا بد من أن يأخذ بعين الاعتبار التطور التاريخي الحديث للمنطقة الذي يمكن سرد أبرز محطاته بالتالي:

■ تبلور الأطماع الغربية في ساحل شرق المتوسط منذ منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث ابتدأ النفوذ الأوروبي بالتعاظم وفرض صلاحيات واسعة للقناصل والبعثات الدبلوماسية الأوروبية والأميركية وللشركات التجارية بالإضافة إلى وصول البعثات التبشيرية والتعليمية إلى الشرق، ما أدّى إلى خلق بيئة متآلفة ومرتبطة بالمصالح الخارجية. كما أنّ ازدياد وتطوّر التعليم سمح بوجود فئات متعلمة بدأت تشعر بأهمية الحاجة إلى وجود ثقافة متحررة من الهيمنة العثمانية وإلى بدء ظهور الجمعيات السياسية السرية والصحف السياسية والعلمية في ما عُرف بعصر النهضة.

■ ترافق ذلك مع تطور اجتماعي وقومي في دول أوروبا الشرقية بدءاً من غرب روسيا وعمليات التحريض وازديادها في روسيا ودول أوروبا الشرقية للجاليات اليهودية في ما عرف بحملات «Pogroms» (كانت محاولة اغتيال قيصر روسيا على يد فتاه يهودية أحد تلك الأسباب)، وإلى بدء الدعوة بين الجاليات اليهودية الشرق أوروبية للهجرة إلى فلسطين أو غيرها في ما عرف بجمعيات «محبي صهيون»، وإنشاء أول مستعمرة على أرض فلسطين في روش بينا في الجليل الأعلى عام 1882. أتى لاحقاً بروز دعوة هرتزل لإنشاء «دولة اليهود»، وتبعها تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية لتحقيق ذلك الهدف.

■ أدّى وقوع المشرق العربي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى تحت الاستعمار الكولونيالي البريطاني والفرنسي في ما عُرف بالانتداب الذي فُرض من عصبة الأمم. حرصت الحركة الصهيونية حينها على أن يتضّمن صك الانتداب على فلسطين من عصبة الأمم ملاحظة إنشاء كيان لليهود في فلسطين. ترافق ذلك مع بدء الاكتشافات النفطية والأهمية الاقتصادية الاستراتيجية للمنطقة للاقتصاد العالمي، حيث تمّ مدّ أول خط نفطي من كركوك إلى ميناء حيفا في فلسطين في ثلاثينيات القرن الماضي ليربط المنطقة العربية جغرافياً واقتصادياً من جديد، إضافة إلى تاريخها السابق المشترك (تمّت تهيئة ميناء حيفا وافتتاحه في أواسط ثلاثينيات القرن العشرين وبناء مصفاة النفط الحديثة لاستقبال النفط من مدينة كركوك في العراق)، ما جعل المنطقة ذات أهمية استراتيجية كبيرة للعالم الصناعي الغربي المهيمن وربطها بصراعات السيطرة العالمية على تلك المادة الاستراتيجية. الملاحظ هنا أن خريطة الخط جعلته يمر في الأراضي كافة التي كانت تهيمن عليها بريطانيا العظمى، ولاحقاً تم إنشاء خط ثانوي يمر عبر سوريا إلى ميناء مدينة بانياس ثم طرابلس لمراعاة احتياجات الفرنسيين.

■ شكّل الانتداب البريطاني لأرض فلسطين بقرار من «عصبة الأمم»، البيئة الضامنة الحامية لنشوء كيان «تحت الدولة» للوجود اليهودي المنظم تحت حكم الانتداب، ولم يكن إنشاء الوكالة اليهودية عام 1929 (كحكومة محلية ممثلة للجالية اليهودية) والبنك الاستعماري في فلسطين إلا أدوات استخدمها قادة المنظمة الصهيونية العالمية لتنظيم أمور الجالية اليهودية المحلية، ولشراء والسيطرة على أهم المواقع الزراعية في فلسطين مثل مرج ابن عامر ومستوطنات حول بحيرة الحولة وبحيرة طبريا. تمّ التركيز في هذه المرحلة على أكثر الأراضي خصوبة في فلسطين التي كان يملكها في حالات عدة عائلات غير فلسطينية. استخدم القادة الصهاينة مفهوم «العمل العبري» لطرد الفلاحين العرب الفلسطينيين من على الأراضي التي عملوا عليها منذ أقدم السنين. لذلك أولى عمليات التطهير العرقي في فلسطين بدأت منذ ثلاثينيات القرن الماضي وتبلورت لاحقاً في ما عُرف لاحقاً «الخطة دالت». تولّى قيادة المنظمة الصهيونية في تلك الفترة حاييم وايزمان الذي كان عالماً كيميائياً حاز جائزة لاختراعه مادة الاسيتون ما ساعد بريطانيا العظمى على استخدام النيتروغليسيرين في صناعة المتفجرات، الشيء الذي ساهم في المجهود الحربي البريطاني حينئذ. كما كان الممول الحقيقي لمشروع تأسيس الوجود الصهيوني على أرض فلسطين الثري اليهودي المالي روتشيلد الذي موّل إنشاء مدينة تل أبيب في ضاحية من ضواحي مدينة يافا الفلسطينية.

■ أدى تنامي الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى مجموعة انتفاضات من السكان العرب الفلسطينيين، وأتت «هبّة البُراق» عام 1929 ولاحقاً ثورة القسام عام 1935، وأخيراً ثورة الأعوام 1936- 1939 التي كانت بالفعل ثورة شعبية مسلّحة، واستطاعت المقاومة الشعبية السيطرة على بعض المدن الفلسطينية كاملة ما اضطرّ القوات البريطانية المحتلة إلى استدعاء عشرة آلاف جندي من قواتها المتمركزة في الهند. هكذا احتوت فلسطين على أكبر وجود عسكري بريطاني خارج بريطانيا بعد الهند.

■ أدّى ذلك من جهة الوجود الصهيوني اليهودي في فلسطين إلى إنشاء «كتائب البوليس اليهودي» لحماية المستوطنات، التي كانت الكتائب المسلحة الأولى لتشكيلات قوات الدفاع اليهودية «الهاجاناه». كما كان لتأسيس «الكتائب الليلية» لترهيب وقتل الفلاحين الفلسطينيين من قبل الضابط البريطاني المتصهين أورد ونغيت، البدايات الأولى لسياسات الترهيب والطرد وتدمير القرى المنهجي، التي مُورست بحق الفلاحين الفلسطينيين للضغط عليهم وإرهابهم لترك أراضيهم. طوّر وينغيت لاحقاً هذا المفهوم خلال الحرب العالمية الثانية بابتداع سياسية «خلف خطوط العدو» ومارسها خلف خطوط اليابانيّين في جنوب شرق آسيا.

■ أدّى انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج بريطانيا وفرنسا منهكتين من الحرب إلى استبدال المنظمة الصهيونية العالمية لتحالفها الاستراتيجي من بريطانيا إلى الولايات المتحدة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية كقوة عظمى مع الاتحاد السوفياتي. من اللافت هنا الوعي المبكر لدى القادة الصهاينة لضرورة وجود حليف دولي كبير لمشروعهم المتشكّل على أرض فلسطين، لذلك عُقد المؤتمر الصهيوني السادس عشر في مدينة بلتيمور الأميركية عام 1942، أي قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية بثلاث سنوات. بدأ مذذاك التأثير الكبير للجالية اليهودية الأميركية وللوبي الصهيوني المحلّي في دعم وإنجاح المخطط الصهيوني على أرض فلسطين.

■ أدى التمويل والدعم الغربي للمشروع الصهيوني المتبلور على أرض فلسطين جزءاً من الدعم الغربي لمشروع «الترانسفير» لليهود من أوروبا الشرقية، الذي طبّقه لاحقاً أدولف هتلر خلال الحرب العالمية الثانية. وهكذا نرى أنّ الأهداف «غير السامية» تلاقت مع أهداف الصهيونية في تأسيس دولة إسرائيل على أرض فلسطين. إنِ هذا الموضوع لم يتم التطرق إليه كفاية على الجانب العربي والفلسطيني، وهو جزء من فهم تاريخ طبيعة المشروع المتبلور على أرض فلسطين، وكيفية التعامل معه. لاحقاً استفاد الكيان الصهيوني من «التعويضات» المالية الألمانية التي قدمتها حكومات ألمانيا الغربية ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى الكيان الصهيوني في دعم المشروع الصهيوني.

■ وعى قادة الكيان الإسرائيلي (بن غوريون بالأخص) أهمية وجود سلاح ردعي استراتيجي لضمان بقاء الكيان المستولد. ولهذا كان هدف الحصول على هذا السلاح عاملاً مهماً في الصراعات التي جرت في المنطقة منذ منتصف القرن العشرين. كما كان التصدي لحركات التحرر الوطني في البلاد العربية جزءاً من قدرة الكيان الصهيوني على ابتزاز دول الاستعمار القديم للحصول على هذا السلاح. والمثل الأكثر سطوعاً هو ما جرى بعد قرار الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس لتمويل عملية بناء السد العالي. إذ تم الاتفاق الثلاثي على شن عدوان عليه من بريطانيا، وفرنسا وإسرائيل في ما عُرف بالعدوان الثلاثي. كان الثمن الذي دفع حينذاك مقابل اشتراك إسرائيل هو مفاعل ديمونا الذي حصلت عليه من فرنسا المتضررة من دعم عبد الناصر لثورة الجزائر.

■ إن الاستعراض السابق مع ما تبعه من حروب عربية إسرائيلية يشير إلى أن الدور الصهيوني في المنطقة لم يكن أبداً محصوراً بالسيطرة على أرض فلسطين التاريخية، ولكن تجاوز ذلك في التأثير على كامل المساحة العربية والتمدد إلى المناطق المحيطة بها أيضاً لناحية المدى الاستراتيجي والتوسع إلى القارة الأفريقية والتحالف مع أكثر الأنظمة رجعية مثل نظام جنوب أفريقيا ونظام الشاه في إيران قبل الثورة... الخ.

■ من الملاحظ أنه خلال عقد الثمانينيات انتقل الثقل الاستراتيجي في المنطقة من مصر وبلاد الشام، وفي ضوء هزيمة عام 1967 إلى دول الخليج العربي والعراق خاصة بعد انتصار الثورة الإيرانية والتهديد الذي شكلته لدول الخليج والعراق، وهذا ما أدى إلى الحرب العراقية – الإيرانية في عقد الثمانينيات ثم ما تبعها من حرب الخليج الأولى ثم الثانية حينما أطلق صدام حسين صواريخ سكود على الكيان الصهيوني، وما تبع ذلك من احتلال للعراق عام 2003 لإخراجه من الصراع وتفكيك الجيش العراقي تحت مسمى «اجتثاث البعث». إن كل هذه المجريات قد نقلت الثقل الاستراتيجي في المنطقة من بلاد الشام ومصر إلى دول النفط، مع تراكم الريع النفطي والمردود المالي الناتج عنه. وما أزمة الحكم في سوريا ودور المال النفطي في تمويل ذلك الصراع إلا دليل على ذلك التعاظم.

> ما قبل إقامة إسرائيل احتوت فلسطين أكبر وجود عسكري بريطاني خارج بريطانيا بعد الهند

قضية الشعب الفلسطيني أعقد الاحتلالات في التاريخ، حيث يتداخل التاريخي بالثقافي «المقدّس» (أ ف ب)

ثانياً: ما العمل؟

● الظرف التاريخي العالمي: قراءة في الواقع السياسي العالمي قراءة في تغيير العالم «تعدد أساليب المواجهة والظرف التاريخي الذي تمر به القضية الفلسطينية».

● الدور الاستراتيجي لإسرائيل في المنطقة: ليس من الخفي على أحد الدور الاستراتيجي للكيان الإسرائيلي في المنطقة بدءاً من تحديد المصطلحات انتهاءً بربط مشروعه بالمشروع الغربي في المنطقة عبر العلاقة التي استطاع صياغتها مع السياسيات والمصالح الأوروبية والأميركية في المنطقة، وليس شعار محاربة «الإرهاب» الذي أطلق من شارون بعد أحداث أيلول 2001، إلا محاولة لربط وتصوير الصراع بين الغرب الصناعي المتقدم في مواجهة «ثقافة الإرهاب» المستندة إلى الثقافة الإسلامية العربية وتحت شعار صراع الحضارات الذي أُطلق في بداية القرن الحالي.

● التجارب الثورية الأخرى: لقد استمرّ احتلال الجزائر نحو مئة وثلاثين عاماً، كما استعَمرت الإمبراطورية البريطانية ميناء عدن الجنوبي لفترة مماثلة، وبينما قاتل الشعب الفيتنامي وقيادته الاحتلالين الفرنسي ثمّ الأميركي واستطاع بنجاح تحقيق استقلاله بصورة أذهلت العالم كلّه. كما أنّ الهند والصين حققتا نجاحات مماثلة بعد الحرب العالمية الثانية مستندتين إلى خصائص التاريخ والجغرافية الطبيعية والبشرية لمجتمعيهما.

● في الصراع الثقافي: اختلاط المقدّس باليومي وطغيان ثقافة الاستشهاد على القراءة الهادئة، فالعوامل المقدّسة هي إحدى عوامل الصراع، لكن من الخطأ القاتل طغيانه على القراءة الهادئة والعلمية لتاريخ الصراع، لأنّ ذلك العامل يعني صراعاً لا ينتهي بين أصوليات، بينما قضية الشعب الفلسطيني هي قضية أعقد الاحتلالات في التاريخ، حيث يتداخل التاريخي بالثقافي «المقدّس». في رأينا إنه لمن الضروري فصل كل تلك العلاقات والتركيز على الجانب الأساسي والحقيقي للمشكلة الفلسطينية وهي قضية احتلال الأرض الفلسطينية والطرد المنهجي للفلسطينيين من أرضهم وسرقة مواردهم و«دفعهم إلى الصحراء»، أي استكمال عملية التطهير العرقي بحقهم. من المهم جداً التأكيد على القضية الفلسطينية كقضية شعب وضع تحت الاحتلال رغماً عنه، حيث يتم تهميشه على أرضه وطرده بطريقة منهجية ومخططة مسبقاً. في رأينا هذا هو جوهر التمييز العنصري تجاهه، بينما يتمتع المحتل لأرضه بكل الثروات الطبيعية في فلسطين وآخرها الغاز!

بعض الأساليب الممكنة

أولاً: إعادة الاعتبار إلى تاريخ الصراع ووضعه ضمن إطاره التاريخي الحقيقي، للاستفادة من دروس وعبر الماضي والاستفادة من الكفاءات الفلسطينية المنتشرة في العالم العربي وخارجه.

ثانياً: إعادة الاعتبار إلى «منظمة التحرير» التي تمّ تهميشها وإلحاقها بالسلطة، وذلك كي تستطيع الاهتمام وتأطير الفلسطينيين، داخل فلسطين وخارجها، من جديد حول قضيتهم.

ثالثاً: الاهتمام بالجانب الحقوقي والقانوني للفلسطينيين الموجودين على أرضهم، وقف عمليات طردهم من أماكن سكنهم ورزقهم وتوثيق كل تلك المحاولات وذلك بالاستفادة من كل وثائق الأرشيف الممكنة ومراكز الدراسات الحالية والقائمة والاعتماد عليها.

رابعاً: إعادة ربط القضية الفلسطينية بالقضية العربية وخطط الصراع العالمي على المنطقة ومواردها ومنافذها.

* كاتبة فلسطينية

حقُّ الاستشفاء في القلب وفي الأطراف

جورج يونان *

في مقال سابق («الأخبار»، 11 تموز 2017) قلت إن العناية الصحية هي «حقّ المواطن ومسؤولية الجهاز الطبي والدولة»، وإن النظام الصحي، في لبنان، مُبَدَّدٌ، لعدم وجود تناسق بين كلٍّ من أجهزة الدولة، وإدارة المستشفيات، والقطاع الطبي، والقطاع التمريضي، وأرباب الأعمال. هذا التناسق يجب أن يكونَ هدفه الاستثمار في مشروعٍ وطني يضع آليَّةً للعناية الصحية، معتمداً على الكفاءات والخبرات الموفورة في الوطن، وعلى الإنجازات العالمية في هذا المضمار؛ مشروعٍ وطني هدفُهُ خدمة المواطن، بشفافية وبدون تمييزٍ قائم على الاعتبارات الطائفية، أو على مستواه الاجتماعي، أو الاقتصادي.

والدليل على هذا التبدُّد ما نُشِرَ يوم السبت 9 حزيران 2018 في جريدة «الأخبار» بقلم الكاتبة رُلى إبراهيم عن «إنجازات» وزارة الصحة في عهد الوزير الحالي، وكيف أن المواطنين اللبنانيين «لا يزالون يعانون الإذلال نفسه على أبواب المستشفيات، ويستعطون الدواء من مكاتب السياسيين والسماسرة». وتحدثت الكاتبة عن أزمة الدواء، وخصوصاً أدوية الأمراض المستعصية، وكيف أرهق الوزير ميزانية الوزارة بهذه الأدوية، بتكليف الدولة 78 بليون ليرة إضافية على الميزانية المعتمدة، وهي 146 بليون ليرة ـ هذه الزيادة لم تُصرف في خدماتٍ للمستهلك (المواطن)، لكنها ذهبت خدمةً لبعض شركات الأدوية

ـ وكيف عمد الوزير، وعلى حساب المواطن، إلى زيادة ربح الصيادلة من بعض الأدوية الرخيصة التي هي «من فئة الأدوية التي يبتاعها اللبناني في شكلٍ دوري» للتغلب على الألم وارتفاع الحرارة، الخ... وكيف أن المستشفيات الخاصة ترفض استقبال الفقراء الذين ليس عندهم تأمين صحي، رغم إعانات وزارة الصحة لهذه المستشفيات الخاصة، فيُضطرّ المريض إلى التوجه إلى مستشفيات الدولة، التي عَمَدَ الوزير، في الوقت نفسه، إلى خفض سقف إعانات الدولة المخصصة لها، وخفض عدد المرضى المفروض على هذه المستشفيات استقبالهم. هذا في الوقت الذي عمد فيه الوزير إلى زيادة إعانات بعض المستشفيات الخاصة التي يديرها أو يملكها أناسٌ لهم ارتباطٌ سياسي بحزبه. و«نظافة الكفّ» لا تتوافق مع عدم مساواة الوزير في التعامل مع المستشفيات والمؤسسات العلاجية، ومع تحيزه السياسي في تعيين مجالس إدارة المستشفيات الحكومية كمستشفى زحلة ومستشفى بنت جبيل.

هذا بعض ما يعانيه نظام العناية الصحية في لبنان، إذ هو نظامٌ مفتَّت وخاضعٌ للمصالح الفردية وللحسابات السياسية والكوتا الطائفية، بينما المفروض فيه أن يكون مشروعاً وطنياً. ولو كان هناك نظامٌ شفاف يأخذ في الاعتبار مصالح المواطنين، ويُجنِّدُ الكفاءات اللازمة لإدارته، لما رأينا مديراً يُعزل ليحلَّ محلّه مديرٌ آخر لمُجرَّد أنَّ هذا ينتمي إلى حزب الوزير!

إعانات الدولة للمستشفيات، وإعاناتها للعيادات الخاصة، في المجتمعات الدولية المسؤولة والضابطة لميزانياتها، ليست منحاً مجّانية، وإنما هي عقودٌ لتنفيذ مهمات وبرامج محددة هدفها خدمة المواطن والتخفيف من إمكانية تعرضه للمشاكل الصحية وإشكالاتها. والعقود تحدد آليةً للتنفيذ، وآليةً للمراقبة، وتتضمَّنُ جدولاً بالعقوبات في حال التلكُّؤ في تنفيذ هذه البرامج. هذه البرامج والمهمات قد تكون:

ـ الاهتمام بالفقراء الذين لا إمكانية لهم بالحصول على ضمانٍ صحي، والذين يلتجئون إلى المستشفيات في الحالات الطارئة.

ـ تعميم الإضبارة الإلكترونية للمرضى في المستشفيات والعيادات الخاصة كضرورة لا بد منها في هذا العصر الذي يعتمد على التكنولوجيا في تخزين المعلومات وتنظيمها لأخذ العبر منها، ولتجنُّب تكرار التصاوير المحورية والمغناطيسية المكلفة، والتحاليل المخبرية التي لا تتغير من مختبرٍ إلى آخر.

ـ برنامج تعليميّ وتدريبيّ في المستشفيات الأكاديمية للأطباء الجدد المقيمين، المتخرجين حديثاً في الكليات الطبية، لإعدادهم لاختصاصات متعددة.

ـ توفير قسم للطوارئ في المستشفيات لمعالجة المرضى بالتساوي وبدون التمييز بينهم بناء على مستواهم الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي، سواء كانوا شباباً أو كهولاً، وسواء كانوا إناثاً أو ذكوراً.

ـ الأبحاث الطبية التي ليس من الضرورة أن تنحصر في الأبحاث الطبية العلمية. فهناك ضرورة للاستثمار في أبحاثِ تطورِ العنايةِ الصحية في مجال الإدارة، وفي مجال الابتكار التكنولوجي بأبعادهما وتأثيراتهما الاقتصادية والتنظيمية والاستراتيجية.

ـ إيجاد برنامج من أطباء المَصَحّات Hospitalists الذين تُسندُ إليهم مهمة معالجة مرضى الأطباء الذين لا يريدون الذهاب إلى المستشفيات، إذ إنهم حصروا ممارستهم المهنية في عياداتهم فقط. وهذا أمرٌ أصبح شائعاً اليوم في العناية الطبية في الولايات المتحدة.

ـ التعاقد مع فريقٍ مختصٍّ في العناية الفائقة للاهتمام بالمَرضى في قسم العناية الفائقة 24 ساعة في اليوم وسبعة أيامٍ في الأسبوع، بشكلٍ متواصل لا انقطاع فيه.

ـ برنامج خدمةِ المستشفيات والعيادات في المناطق النائية عن العاصمة والمدن الكبيرة، وذلك من أجل إيصال العناية الصحية إلى كلِّ مواطن، وخصوصاً أولئك الذين لا يملكون وسائل نقل ولا سبيل لهم للوصول إلى طبيب.

فبناءً على أيِّ برنامجٍ تُمنَحُ إعانات الدولة للمستشفيات في لبَنان؟ وما هي آليةُ مراقبةِ تنفيذِ هذه البرامج؟ فـ«المواطنون لا يزالون يعانون الإذلال نفسه على أبواب المستشفيات ويستعطون الدواء من مكاتب السياسيين والسماسرة». و«بعيداً عن الأدوية وحاجة كل المواطنين إليها، يبرزُ همٌّ آخر اسمُه الاستشفاء وما يُرافقُهُ من صعوبة ومشقة يتكبدها المواطن الفقير غير المضمون أو الذي لا يحظى بتأمينٍ صحي...» فما «زالت المستشفيات الخاصة ترفض استقبال هؤلاء المرضى، مهما بلغت خطورة حالتهم...»، ووضع المستشفيات الحكومية مُزْرٍ بسبب نقص المعدات الطبية فيها. «فضربُ المستشفيات الحكومية وتعويم المستشفيات الخاصة» تعزيزٌ للزبائنية الطبية والارتهان السياسي للزعيم الطائفي. فالوزير، أي وزير، قادرٌ على أن يُبيح لنفسه «توزيع اعتمادات (إعانات) المستشفيات على هواهُ وبالطريقة التي يراها مناسبة. وهناك شرهٌ ليس للوزارات «السيادية»، لا بل شرهٌ أكبر للوزارات «الخدماتية»، من قبل الأحزاب الطائفية. وليتها خدماتُ للمواطن، ولكنها خدمات لملوك الطوائف لتوظيفها في ابتزاز الولاء السياسي». (راجع مقال إدمون صعب: «الدجاجات تبيضُ دولارات»: IM Lebanon، 20 حزيران 2018).

«النظام اللبناني هو النظام الوحيد بين دول المشرق العربي الذي لا يزال متمسكاً بنمط السلطنة العثمانية في بنيته السياسية ـ الاجتماعية... (إذ) أنشأ العثمانيون تَراتُبِيَّتَيْن لتنظيم السلطنة: تراتبية الوظائف والمقامات، وتراتبية الملل والأديان... (فـ)المدينة كانت مقسمة إلى حارات... (و) إن كل طائفة ـ نقابة فُصِلَتْ عن بقية الطوائف عبر إنشاء مؤسَّساتها الخاصة (في الحارة)... (و) مثَّلَتْ الطائفة وحدةً إدارية لا علاقة لها مع الطوائف الأخرى (أو الحارات الأخرى)... (وهكذا) بقيت المدينة العثمانية في المشرق العربي مقسمةً إلى حاراتٍ منعزلٍ بعضها عن البعض الآخر، وعجزت عن خلق روح التعاون والتضامن بين سكانها. فكل حارة تعيشُ حياتها المنفصلة عن جيرانها، وهي في خوفٍ دائم من سيطرة حارة أخرى عليها، وغالباً ما لجأت إلى السلاح لمواجهة الحارات الأخرى... (و) خلال القرن الثامن عشر تداخلت التراتبيتان في المشرق العربي واندمجت المهنة بالملَّة...» (صفية أنطون سعادة: «تحجر البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية في لبنان»، جريدة «الأخبار»، 18 حزيران 2018). لم يتغير شيء منذ العهد العثماني ولا تزال الأمور اليوم كما كانت يومذاك. وحالة «الاستشفاء عن بُعْد» في الأطراف ليست أفضل. فما نراه اليوم هو فقراء ترفض أبوابُ الطوارئ في المستشفيات أن تستقبلهم؛ مستشفيات اكتظَّ بها قلبُ ومركزُ كلِّ مدينة كبيرة في لبنان. توزيعها جاء عشوائياً، ولكن طائفياً، ومن دون دراسة آخذة في الاعتبار حاجة المواطن وخدمته. وقد قلتُ في مقالٍ سابق («العناية الصحية حق المواطن ومسؤولية الجهاز الطبي والدولة»، «الأخبار» 11 تموز 2017) إن هناك، في المدن الكبيرة، زيادة في المستشفيات الصغيرة التي يملكها أطباء؛ مستشفيات تنقصها التجهيزات اللازمة للعلاج الطارئ والحالات الخطِرة التي تتطلَّبُ عنايةً مشددة. كما أن فيها نقصاً في عدد الممرضات الكفوءات. هذه المستشفيات هدفُها التجارة والربح. واكتظاظ المدن الكبرى بها وفقدانها في الأطراف أدّيا إلى اكتظاظ مراكز وقلوب المدن بالأطباء، الأمر الذي أدى إلى عدم قدرة بعضهم على إيجاد واردٍ كافٍ لإعالة أنفسهم وإعالة عائلاتهم بسبب المزاحمة وزيادة عدد الجالسين حول قالب الحلوى، فوقعوا في أحابيل المختبرات ومراكز التصوير الخاصة حيث عمَّت الرشوة.

> نظام العناية الصحية مفتَّت وخاضعٌ للحسابات السياسية والكوتا الطائفية

كانت العادة، قبل عشرين سنة وأكثر، أن أكثر المرضى المصابين بالأمراض الخطرة، في الولايات المتحدة مثلاً، كانوا يقصدون المراكز الكبرى الموجودة في المدن الكبرى لمعالجة عللهم. فالمصاب بالسرطان كان يذهبُ إلى Sloan Kettering Cancer Center. أما مريضُ القلب، فكان يتجه إلى مركز مايكل دبغي للأمراض القلبية في مدينة هيوستن. وقِسْ على ذلك سائرَ الأمور الأخرى. أما اليوم، فهذه المراكز، وبسبب متطلبات السوق والتسهيلات المتوفرة بفضل ابتكارات التكنولوجيا، تذهب إلى الأطراف حيث يسكنُ المستهلك (المواطن) لتؤمِّن له ما يحتاج من عناية. وقد ذكرتُ في مقالٍ سابق أن الأمم المتحدة قدَّمت منحة للحكومة اللبنانية لفتح مراكز صحية في الأطراف، لكنَّ هذه المنحة، وللأسف الشديد، صُرِفَتْ في أماكن أخرى. ولو أن الدولة اللبنانية قامت بواجبها بالاهتمام بالأطراف، لكانت أمَّنتْ للمواطنين خدمة جُلّى، ولكانت ساعدت على فتح دورة اقتصادية في الأطراف، ولكانت أمَّنتْ وظائف للأطباء الذين ليس لهم المورد الكافي في المدن الكبرى؛ وبالتالي لكان بابٌ من باب الرشوة والهدر قد أُغلِقْ، ولكانت خفَّفَت الضغط على المدن، وقلَّلتْ من ازدحام السير وحوادثه.

إلا أن النظام الطائفي الفاسد لا يرضى إلا بتوزيع المغانم. يتحدثون عن الدولة وبناء المؤسسات المدنية وهم ألدُّ أعدائها!

في كتابه «البجعة السوداء» يقول الكاتب والمفكر اللبناني نسيم نجيب طالب إن العالم قبل اكتشاف أوستراليا كان يعتقد بأن كل البجع أبيض اللون، إلى أن فُوجِئَ بأن هناك بجعاً أسود! وفي كتابه «العَصِيُّ على الكَسْر» أو «ضد الهشاشة» Antifragile يقول: كنّا نتصوّر أن العالم محكومٌ بجداول صممتها أبحاث الجامعات الأكاديمية ومفكروها والهباتُ الممنوحةُ للأنظمة البيروقراطية. وعليه، فقد كنّا نتوقّع، بفضلِ ذلك، أن الكون كله سيتَّبع نظاماً مبرمجاً مستقيماً معيَّناً، والحقيقة أنِ العالم برمته حَكَمَتْهُ الأحداثُ غير المتوقَّعة والخارقة. فالتطورُ في العالم لم يحصل وفقَ خطٍ مستقيم، وإنْ يكنْ متصاعداً، بل حَدَثَ على شكل قفزاتٍ عجائبية، ووفقَ برامج وشعارات تطورت وتغيرت مع الزمن (Kuhn’s Paradigm Theory). والقفزات العجائبية هي من صنع أفكار القياديين، في أي مجال كان، الذين يملكون الرؤيا والابتكار. همُ «الريحُ التي لا تُطفئُ شمعة، لكنّها، في الوقتِ نفسه، تؤجِّجُ ناراً»، فأين هؤلاء من أطباء وإداريين ورجال دولة؟

* كاتب وطبيب، رئيس سابق لمنظمة الأطباء العرب الأميركيين